

تَضَارَبَتِ الْآرَاءُ حِينَ أَعْلَنَ خَادِمُ بْنُ زَاهِرٍ اسْتِيَاءَهُ مِنْ حُسَيْنِ صَاحِبِ (الْبَوْمِ) قَائِلًا: «إِنَّمَا أَنْ تُعْطِينَا لِأَنَّهُ قَطَعَ رِزْقَهُ وَرَزَقَ عِيَالَهُ بِيَدِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كُنَّ لَهُ حُبًّا عَظِيمًا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: «مَنْ تَدَخَّلَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ نَالَ مَا لَا يُرْضِيهِ». كَانَ يَكْظُمُ الْإِمَامَةَ فِي نَفْسِهِ، حِينَ كَانَتْ ثَنِيَّةُ تَوَدُّ أُخْتَهَا مِيرَةَ. يَرَى زُمَلَاءَ الْمَاضِي، وَهُوَ يَمُرُّ بِهِمْ، وَكَمْ مَرَّةً شَجَعَتْهُ زَوْجَتُهُ لِلْهَرَبِ بَعِيدًا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَرْفُضُ الْفِكْرَةَ زَوْجَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، وَتَحَرَّصَ عَلَى زيارَتِهَا، فِي كُلِّ مَسَاءٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ تَصْطَحِبُ مَعَهَا ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ ذَا الْأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةَ لِيَلْعَبَ مَعَ وُلْدِي خَالَتِهِ سَلِيمَةَ الَّتِي تَكْبُرُهُ بِأَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ، وَمُبَارَكَ الَّذِي يَصْغَرُهُ بِعَامَيْنِ، رِيثَمَا تَذْهَبُ الْأَحْتَانُ إِلَى بَيْتِ عَمَّتَيْهَا عَوْشَةَ؛ حَيْثُ يَتَسَامَرُ الثَّلَاثُ حَتَّى بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ تَعُودَانِ لِتَحْرِجِرَ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ وَلَدَهَا وَهُوَ فِي حَالَةٍ أَقْرَبَ إِلَى النَّوْمِ مِنْهَا إِلَى الْيَقْظَةِ. هَكَذَا كَانَتْ تَمْضِي أُمْسِيَاتُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرِ، كَمَا كَانَ يُنَادِيهِ ابْنُ زَاهِرٍ، عِدَا الْأُمْسِيَاتِ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا وَالِدُهُ قَدْ عَادَ مِنْ عِنْدِهِمْ. وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى جَنْبِهَا كَانَ وَزِيرًا، وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهَا كَانَ لِصًّا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ بِالضَّرْبِ، وَالسَّفَرِ، وَعَالِبًا مَا يَنَامُ بِبَسَاطَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ مَلِكٍ إِلَى وَزِيرٍ إِلَى لِصٍّ. وَهِيَ تَحْكِي لَهُمْ حِكَايَاتِهَا الْمُسْلِمِيَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَهِيَ تُحَدِّثُهُمْ تَدْوِيرَ الْعَلْبَةِ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَيَنْتَقِلُونَ اقْتَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْبَحْرِ تَأْهَبَتْ مِيرَةَ لِإِنْجَازِ أَعْمَالِهَا. فِي أَيَّامِ الرَّبِيعِ وَقَبْلَ . هَلْ أَعْجَبْتُمْ (خَرُوفَةَ) اللَّيْلَةَ؟ يَا اللَّهُ يَا أَوْلَادِي. هُوَا الرَّحِيلُ إِلَى مَنَازِلِ الصَّيْفِ. تَنْتَظِرُ دُنُو الْأَصِيلِ، وَتَرْتَبُ عَلَى أَحَدِ أَطْرَافِهِ طَيَّاتِ فِرَاشِ النَّوْمِ، وَتَنْزِفُ شَيْشَةَ (الْفَنْرِ) ، ثُمَّ تَشْعُلُ إِلَيْهِ أَجْسَادَ الصَّبِيَّةِ وَهَمَّ، لِذَلِكَ. وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ تَعْرِزُ عُلْبَةَ الصَّفِيحِ فِي الرَّمْلِ فَيَلْتَهُ، وَتَضَعُهُ فَوْقَ الصَّنَدُوقِ الْخَشَبِيِّ الْمُخَصَّصِ يَتَعَارَكُونَ فِي أَثْنَاءِ غِيَابِهَا. - أَحْضَرَ خَادِمٌ حِبَالًا اشْتَرَاهَا مِنْ مُرَادِ الْبَقَالِ. وَانْكَبَّ عَلَيْهَا يَتَفَكَّمُهَا، وَهُوَ يُبْهَمُ سَاصِنَ وَاحِدَةً مِثْلَهَا بِهَذِهِ الْحِبَالِ، رَمَقَتْهُ زَوْجَتُهُ أَنْتَ تَضِيعُ وَقَتَكَ. سَيَكْبُرَانِ يَوْمًا مَا. نَظَرَ إِلَيْهَا شَرْرًا، وَظَلَّ يُتَابِعُ مَا بَدَأَهُ. فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ مَعَ وَالِدَتِهِ مَتَآخِرًا، وَكَانَ مُبَارَكٌ قَدْ رَافَقَ أُخْتَهُ لِعِيَادَةِ صَدِيقَتِهَا هِدَايَةَ، غَادَرَتِ الْمَرَّاتَانِ إِلَى عَمَّتَيْهَا، وَمَكَثَ الصَّغِيرُ مَعَ أَبِيهِ خَادِمٍ، تُطَرِّزُ نَفْسَهَا بِنُجُومِ فِضْيَةٍ، وَهِيَ تَلْحَفُ الْأَرْضَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ، وَالْفَنْرُ عَلَى عَرْشِهِ الْخَشَبِيِّ، يُجْهِدُ نَفْسَهُ لِيَشْكَلَ يُفَعَّةَ صَفْرَاءَ، فِي قَلْبِ وَيَصْدُرُ مِنْ عَادَاتِ ابْنِ زَاهِرٍ عِنْدَمَا يَسْرَحُ بِفِكْرِهِ، أَنْ يَدْخُلَ عَوْدًا مِنَ الْحَوْشِ الْوَاسِعِ، وَقَدْ خَضَعَ (الْفَرِيحِ) لِصِمْتِ مُتَعَبٍ النَّقَّابِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، صَوْتًا يُشْبِهُ زَقْزَقَةَ الْعَصَافِيرِ. نَظَرَ إِلَى النُّجُومِ الْمُتَالِفَةِ، تَعَلَّمَهُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي الْبَحْرَيْنِ: الْمَجْدُ لِلْفُقَرَاءِ». وَاسْتَمَرَ يُصْدِرُ زَقْزَقَةَ الْعَصَافِيرِ وَهُوَ يَشْفِطُ مَا تَبَقِيَ مِنَ سَمَكِ الْعِشَاءِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، ثُمَّ يَقْدِفُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْبَرَّاحِ مَدَّ سَاقِيهِ وَأَخَذَ يُفْرِشُ مَا تَغَضَّنَ مِنْ إِزَارِهِ دَاخِلَ حِضْنِهِ عَلَيْهِمَا. كَانَا كَسِيحِينَ مِنَ الْحَدِيدِ يَكْسُوهُمَا شَعْرٌ مُحَمَّدٌ كَثِيفٌ، فَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْحَرِّ الْخَفِيفِ الَّذِي بَدَأَ يُغْلَفُ الْحَوْ، وَبِقِيَّةٍ مِنْ ضَجْرِ تَلْفُهُمَا مَعًا، أَرَادَ أَنْ يَنْسَى، فَأَخْرَجَ الْمَذْيَاعَ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَأَدَارَهُ كَانَتْ أُمَّ كَلْتُومُ تُغْنِي أَخَذَ يَسْأَلُ تَحْتَ لَمْ يَكْتَرَتْ. «الضِّيَاءُ الْوَاهِنُ بَيْنَمَا ظَلَّ الصَّغِيرُ يَرِاقِبُ تَصَرُّفَاتِهِ اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ، وَتَحَشَّأَ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ، ثُمَّ قَالَ: تَأَخَّرَ الْوَلْدَانُ أَخَذَتِ النَّشْوَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، إِلَّا أَنَّ خَادِمًا لَمْ يَحِلْ لَهُ الْوَضْعُ، فَظَلَّ يَتَلَوْنَ إِمَّا جَالِسًا، أَوْ مُسْتَلْقِيًا عَلَى ظَهْرِهِ، أَوْ نَائِمًا، الصَّبِيُّ لِمَا حَدَّثَ عَلَى جَنْبِهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، وَمُسْتَنِدًّا بِمِرْفَقِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَذَرَعُ الصَّغِيرُ بِالصَّبْرِ، وَقَدْ اِكْتَفَى بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى النَّائِمِ، مِنَ الْفَرَاغِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا كَمَا كَانَ، دُونَ أَنْ يَدْخُلَ عَوْدَ نِقَابِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، لَا تَخْلُصُ بِسُرْعَةٍ. - وَمَا كَانَتْ غَلَطَةً مِنَ الصَّغِيرِ لَا. «عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ أَبِي يَقُولُ عَنْهَا مُمْتَازَةً». وَلَكِنِّي أَفْضَلُ حَمْدَانَ الْوَطْنِي. - اسْمَحْ لِي، لَا تَعْرِفُ شَيْئًا لَا شَيْءَ يَا أَبِي خَادِمٍ، اعْتَدَلَ الرَّجُلُ فِي جَلِيسَتِهِ، وَأَخَذَ نَفْسًا. «يَعْرِفُ كَيْفَ فَلْتَتَ مِنْهُ فَصَرَخَ ابْنُ زَاهِرٍ فِي وَجْهِهِ: «مَا تَقُولُ يَا جَاهِلٌ؟ وَذَاتِ الْيَسَارِ، وَقَالَ: لَقَدْ تَأَخَّرَا كَثِيرًا لَمْ تَلْعَبِ اللَّيْلَةَ مَلِكٌ أَوْ وَزِيرٌ». ، عَمِيقًا إِلَى أَنْ هَدَأَتْ حَالَتَهُ وَنَسِيَ، لَمْ يَطِبْ لَهُ الْحَالُ بَعْدَ ذَلِكَ مَلِكٌ أَوْ وَزِيرٌ، قُلْ شَحَادًا أَوْ ابْنَ بَحَارٍ، هَذَا يَكْفِي، لَمْ يُحَاوَلِ الصَّغِيرُ فَهَمَّ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا قَالَهُ. سَلَّمَهُ الْيَحْلَةَ وَجَلَسَ. وَعَادَ خَادِمٌ يُكْمِلُ مَلِكٌ أَوْ وَزِيرٌ، - لَا شَيْءَ. لَا شَيْءَ. لَا مَجْرَدَ وَجَعٍ. - «وَجَعٌ!». لَكِنَّهُ لَيْسَ كَوَجَعِ الدَّاءِ، لَكِنَّهُ أَحْسَسُ. طَرِيقَ السَّخْرِيَّةِ فِي صِمْتِ «هَهُ» بِوَحْزَاتٍ مِنَ الْأَلَمِ وَظَلَّ الْاِثْنَانِ فِي صِمْتِ وَخُشُوعٍ حَتَّى أَنْهَتِ اللَّغَايَةَ أُغْنِيَتْهَا !! وَقَالَ الْمَذْيَعُ: بَعْدَ أَنْ أَفْرَغَ هُمُومَ الْعَالَمِ فِي آذَانِهِمَا. أَبُو خَادِمٍ؟ ! «خَشِخَشَ الْمَذْيَاعُ، وَتَضَارَبَتِ الْإِذَاعَاتُ، فَصَفَنَ الْوُجُودُ كُلَّهُ، أَوْ هَكَذَا تَرَاوَى، وَكَانَ الصَّبِيُّ يُنْصِتُ فِي غَرَابَةٍ مَا يَدْرِي اقْتَرَبَ الطُّفْلُ. كَانَ اللَّيْلُ يَتَوَكَّلُ بِخُطَوَاتِهِ الصَّامِتَةِ، قَالَ ابْنُ زَاهِرٍ «أَنْ مَنِيَّ يَا صَغِيرِي». . لِلصَّغِيرِ، ثُمَّ نَطَقَ الْوُجُودُ كُلَّهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَعْرِفُ الظُّلْمَ يَا وَلَدِي؟»، مَا الظُّلْمُ يَا أَبْتِ؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُحَاوَلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ تَجَاعِيدِ وَجْهِهِ: «الظُّلْمُ هُوَ أَنْ يَوْجِدَ فِينَا وَاحِدًا مِثْلَ حُسَيْنٍ، هُوَ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَحْنُ لَا تَمْلِكُ مَا نَسُدُّ بِهِ الرِّمْقَ. تَصَاعَدَ الدَّمُ فِي رَأْسِ ابْنِ زَاهِرٍ فَأَصْبَحَ كَالْمَرْجَلِ، وَأَرْدَفَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الصَّبِيِّ بِسَبَابَتِهِ: اسْمَعْ مِنِّي يَا وَلَدِي، هَا هُوَ أَبُوكَ يَدُورُ كَالثُّورِ الْمَرْبُوطِ فِي (الْمَنِيورِ) مِنَ الْهِنْدِ إِلَى إِفْرِيقِيَا إِلَى الْمَمْلَكَةِ، يَصُبُّ الْخَيْرَ فِي جُوعِي حُسَيْنٍ وَيَزِدَادُ أَبُوكَ فَقْرًا عَلَى فَقْرِهِ، سَيَقْدِفُ بِهِ فِي الْبَحْرِ، كَمَا فَعَلَ مَعِي هَا أَنْتَ تَرَانِي كَالآلَةِ الْمَعْطُوبَةِ. كُنْ بَحَارًا - يَا وَلَدِي - فَتَحْنُ كَالسَّمَكِ يُمِيتُنَا الْبَعْدُ عَنِ الْبَحْرِ، وَلَكِنْ لَا تَكُنْ ثُورًا يَدُورُ لِصَالِحِ أَحَدٍ فَالْتِيْرَانِ يَجِبُ أَنْ تَتَّحِدَ لِصَالِحِهَا الْمُشْتَرَكِ». فَهِيَ هِيَ الثُّورُ الْمَحْدُورُ يَتَفَجَّرُ كَالْحِمَمِ، عَصَرَ رَأْسَهُ بِكَلْتَا يَدَيْهِ. أَحْسَسْ بِدَوَارٍ شَدِيدٍ. مَادَتْ بِهِ الْأَرْضُ.

وَأَحْتَقَنَ وَجْهَهُ تَوَرَّمَتِ شَفَاتَاهُ، وَتَهَدَّكَتِ الشَّفَةُ السُّفْلَى. صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «آخِ الصَّدَاعِ»